لغة الجرائد

(تابع لما في الجزء السابق)

ويقولون خرج في موكبٍ يبلغ خمسة آلافٍ عدًّا وهي عبارةٌ شائعة عند اكثر الكتّاب لا تكاد تفوت واحداً منهم وربما قالوا قُتل في هذه المعركة ما يقارب خمسة آلافٍ عدًّا وهو اغرب . وانما ذلك لعدم تدبُّرهم معنى العدّ هنا والمقصود بهِ عند من نُقل عنهُ هذا التركيب . وبيانهُ انك تقول مثلاً لي على فلانٍ خمسة آلاف درهمٍ عدًّا اي لي عليهِ هذا القدر معدوداً عدًّا لا بطريق التقدير والتقريب ونقدتهُ خمسين ديناراً عدًّا اي عددتها لهُ واحداً واحداً ومفادهُ التحقيق والتوكيد لا الحشو والتزيين كما يتوهمونهُ

ويقرب من هذا قولهم دخلت عليهِ فاذا عندهُ رجلان اثنان والتوكيد غريبٌ في هذا الموضع لان الرجلين لا يكونان الا اثنين فالصيغة مغنية عن التصريح باسم العدد وانما يزاد اسم العدد للتوكيد حيث تدعو اليهِ الحاجة لدفع التوهم او تقوية المعنى تقول شهد بهذا شاهدان اثنان فتوكد لئلا يُتوهم في كلامك غير الحقيقة وقبضت عليهِ بيديَّ الثنتين تريد شدة القبض عليهِ ومنعهُ من الافلات وقس على ذلك

ويقولون فعل هذا لمصلحة اهل جلدتهِ يريدون قومهُ واهل جيلهِ (الجيل الصنف من الناس كالعرب والترك والروس وغير ذلك) وقد أُولع كتّابنا بهذه العبارة وتناقلها بعضهم عن بعض من غير بحثٍ ولا تنقيب عن اصل مغزاها ومراد قائلها . وهي في الاصل من قول جرير وقد مرّ بنُصَيبٍ الشاعر وهو ينشد وكان نُصَيبٌ اسود فقال لهُ اذهب فانت اشعر اهل

جلدتك يعني اشعر السود فقال وجلدتك يا ابا حزرة وهي كنية جرير اي واشعر البيض ايضاً . وحينئذٍ فلا معنى لأن نقول اهل جلدة الانكليزي مثلاً او الفرنسوي او الالماني لان لكل هؤلآء جلدةً واحدةً فهي تتناول الجميع على السوآء

وقريبٌ من هذا قولهم هلَّ شهر يناير مثلاً وجاء في غرّة ابريل وكتبهُ لعشرٍ خلون من شهر دسمبر وانما ذلك كلهُ من الاصطلاح المخصوص بالاشهر القمرية لان قولهم هلَّ الشهر يراد بهِ ظهور هلال ذلك الشهر وكذا غرّة شهر كذا المراد بها غرّة هلالهِ وهي اول ما يبدو منهُ وقولهم لعشرٍ من شهر كذا باسقاط التآء من اسم العدد اي لعشر ليالٍ لان الاشهر القمرية تؤرَّخ بالليالي كما لا يخفى وبخلافها الاشهر الشمسية فكل ذلك من استعمال الشيء في غير محلّهِ

ومن تهافتهم في النقل ما أُولع بهِ اكثرهم من استعمال لفظة هاته في مكان هذه ذهاباً الى انها افصح منها وما هي بالفُصحَى ولا الفصيحة وهذه معلَّقات العرب بل قصائدها التسع والاربعون وهذه دواوين شعرآئهم من مثل عنترة والنابغة وحاتم وعروة بن الورد والفرزدق وجرير وغيرهم وهذه خُطَب الامام عليّ والمنقول عن وفود العرب كلهم بل هذا القرآن نفسهُ هل يجدون في ذلك كلهِ لفظة هاته فلو كانت بهذه المنزلة التي يتوهمونها لم تفت اولئك كلهم على مكانهم من اللغة وتحققهم من فصيحها . ولقد قلّبنا كثيراً من صُحُف الكتّاب في كل عصرٍ من اعصار الاسلام فلم نجد هذه اللفظة في شيءٍ من كتب المتقدمين ولا نذكر اننا رأيناها قبل شيوعها بين كتابنا

الا في كلام بعض متأخري التونسيين بل لعلها لم ترد الاّ في كتاب خير الدين باشا المسمى باقوم المسالك فانها شائعةٌ في الكتاب كلهِ لا يكاد يستعمل غيرها وهو من غريب الذوق في اختيار الالفاظ

ويقولون خابرهُ في الامر اي فاتحهُ فيهِ وذاكرهُ وفاوضهُ وانما المخابرة في اللغة بمعنى المزارعة وهي ان يزارع الرجل ببعض ما يخرج من الارض

وفي معناهُ يقولون داولهُ في الامر وتداولا فيهِ وانما يقال تداولوا الشيء اذا اخذوهُ بالدُوَل هذا مرةً وهذا مرة

ويقولون تضرَّر لهُ اي شكا اليهِ ضررهُ وهو من الالفاظ التي لم ترد في اللغة اصلاً

ويقولون نقه من علتهِ نقاهةً وانما النقاهة مصدر نَقِه الكلامَ اذا فهمهُ يقال فلانٌ لا يَفقَه ولا يَنقَه واما مصدر نقه من مرضهِ فهو النقَه بفتحتين والنُقُوه وقد نَقَه ونَقِه بكسر القاف وفتحها

ويقولون قد شاع هذا الخبر في النوادي يريدون جمع النادي وهو مع كونهِ القياس غير مستعمل وانما يقال في جمعهِ الأَندية وهو في الاصل جمع نديّ بمعنى النادي استغنوا بهِ عن جمع النادي كما استغنوا بالاحاديث الذي هو جمع الأُحدوثة عن جمع الحديث

ويقولون فلانٌ من ذوي الأَمجاد يريدون جمع مجد ولم يُسمَع للمجد جمعٌ على امجاد ولا غيرهِ لانهُ مصدرٌ في الاصل وما سُمِع في كلامهم من لفظ امجاد فانما هو جمع مجيد على حد شريف واشراف ويتيم وايتام وقد ذكرنا وجههُ في مقالتنا اللغة والعصر

ويقولون في جمع المغارة مغائر بالهمز وصوابهُ مغاور بالواو كما يقال في جمع مفازة مفاوز لان حرف المدّ اذا كان اصلاً لا يُهمَز ومثلهُ قولهم معائب ومشائخ ومكائد بالهمز ايضاً وصوابهنَّ بالياء

ويقولون رأيتهُ من منذ خمسة ايام فيدخلون من على منذ كانهم يريدون بها الدلالة على ابتداء الغاية وهو نفس المعنى الذي تدلّ عليهِ منذ فالصواب حذف احداهما

ويقولون صلَّح الشيء تصليحاً خلاف افسدهُ فاصطلح وكلاهما خطأٌ لان الاول لم يرد في اللغة اصلاً والثاني من افعال المشاركة يقال اصطلح الخصمان اي تصالحا وليس في شيءٍ من معنى الصلاح الذي هو ضدّ الفساد. والصواب اصلحهُ اصلاحاً فصلَح هو صَلاحاً وصُلوحاً لان الثلاثي اذا كان لازماً استُغنِي بهِ عن مطاوع مزيدهِ . ومنهم من يقول في مطاوعهِ انصلح وكانها لغة من يقول في ضدّهِ انفسد مما تقدم الكلام فيهِ قريباً وقد ورد من هذا قول عبد المحسن الصوري من شعراء اليتيمة

أما انصلحتَ للمال منك طويةٌ فتُصلِحهُ حتى متى انت حاقدُ

ومثلهُ قول عبد الوهاب بن جعفر الحاجب من شعراء اليتيمة ايضاً

اصلح فساد العيش مجتهداً ففساد عمرك غير منصلح

ويقولون احتمى عن ذكر الامر اي تحاماهُ وتفادى منهُ ولم يأت احتمى في شيءٍ من كلامهم بهذا المعنى ولا سُمِع في كلام العامة ولكنهُ من الالفاظ التي انفرد بها بعض كتّابنا تعمقاً في الحذلقة ولهُ نظائر سنذكرها في ختام هذه المقالة (ستأتي البقية)

مصير الارض

تتقلب احوال الكائنات بين عاملي الكون والفساد ويتعاقب التركيب والتحليل على كل موجودٍ من الحيّ والجماد سُنّةَ الله في المخلوقات من ارقّ السدُم الي رِمّة الحيوان ومن ذَرّات الاثير الى دقائق الصوّان اطوارٌ تتوالى بين عقدٍ وانحلال ووجودٍ واضمحلال وانما تضمحلّ الصُوَر وتتلاشى الاشكال والمادّة باقيةٌ لا تذهب منها ذرَّةٌ ولا يعرض لها التلاشي في حال

واعتبر ذلك في الارض وما يؤلف اديمها من الجواهر ويشتمل عليهِ جوّها من العناصر وما يعيش عليها من النبات القائم في الصحرآء والحيوان السارح على وجه العرآء والسابح في لجّتي المآء والهوآء تجد هناك سلسلةً يتصل اعلاها باسفلها ويتحوّل بعضها الى بعض حتى يرتدّ آخرها على اوّلها بل ترى الارض نفسها عُرضةً للطبيعة تغزوها بالسيول الجوارف والرياح النواسف والامواج التي تهاجم ثغورها والزلازل التي تصدّع صخورها متعاقبةً عليها ما تعاقب الليل والنهار الى ان يأتي يومٌ تنحلّ فيهِ الجبال وترسب في دَرَك البحار ثم لا تزال المياه تسحل وجه الارض حتى لا يبقى فيهِ امتٌ ولا انحنآء وحتى يغمرها المآء من كل ناحيةٍ وقد عاد سطحها مستوياً تحت المآء كاستوآء سطح المآء فعادت كما كانت في اوائل خلقها مآءٌ غامر وكونٌ بائر قد خلا من عالمي البرّ والهوآء ولم يبقَ فيهِ من ذوات الحياة الّا عالم المآء

*
* *

هذا اذا لم تُصب الارض قبل ذلك بالهرَم ويَنضب مآؤها بعد خمود ما في باطنها من الضرَم ولم تتشرّب هوآءها فلا يتنفسهُ بعد ذلك نباتٌ ولا حيوان ولا يجد ذو جناحٍ ما يعتمد عليهِ جناحهُ في الطيران على حدّ ما تمّ من مثل ذلك في القمر حتى لم يبقَ فيهِ وَشَلٌ لمرتاد وحتى تجرّد من ثوب هوآئهِ او كاد وحتى اصبح قفراً هامداً لا ينبت عليهِ شجر ولا يتنفس فيهِ دابّةٌ ولا بشر بل لو بقي هوآء الارض وهو خالٍ من بخار المآء لجمّد البرد سطحها تجميداً وانقبض الاحيآء من وجههِ الى حيث يقع شعاع الشمس عموداً ثم لا يزال بساطهم يزداد ضيقاً على توالي الحِقَب الى ان تموت آخر عشيرةٍ منهم بالبرد والسغَب فتدفنها الثلوج حيث لا تنكشف رِممها الى يوم التلاقي وتخطّ يد القضآء على اديم الارض سبحان الحيّ الباقي

*
* *

وهذا اذا لم يصدم الارض جرمٌ من الاجرام السابحة في الفضآء فيتطاير ما عليها من الابنية والخلائق وتثب مياه البحر في الهوآء او تلتهب بجملتها فتعود سديماً منتشراً في جوز السمآء او يلاقِها احد المذنَّبات فيمطرها من النيازك ما يدمّر ممالكها الغنّآء او يبعث عليها من ابخرتهِ ما يصير بهِ هوآؤها سمّاً قاتلاً للاحيآء(١) او يحدث فيها زلزالٌ هائلٌ يقلب

(١) اكثرت الجرائد في هذه الايام من الخوض في مسئلة المذنَّب الذي انبأ احد علمآء الالمان المسيو فالب بمصادمتهِ للارض بين ١٢ و ١٤ من شهر نوفمبر المقبل

برّها بحراً　ويردّ عمرانها قفراً　ويدفن احياءَها تحت انقاض البلدان او في لجج البحار　ويفجرّ من باطنها ما يُغرِق سطحها في بحرٍ من نار حوادث كلها جائز الوقوع وان جاز ان لا يقع شيءٌ منها على الاطلاق　والله واقي عباده سبحانهُ لا يقع امرٌ الا باذنه واليه المساق

* * *

وهذا اذا لم تهرم الشمس فتنقلب نارها برداً ولكنهُ بردٌ بغير سلام فتهيم السيّارات والاقمار من حولها في فضاءٍ من الزمهرير والظلام　ويومئذٍ لا يبزغ الصباح فيذهّب آفاق المشرق　ولا يُقبِل المساء فيخيّم على ارجائه بجيشه المُطبِق　ولا يكون اذ ذاك كسوفٌ ولا خسوف　ولا تبدو القُبّة الزرقاء بلونها المألوف　ولكنها تلتحف السواد حداداً على عالمها بالامس　وقد التفّ بكفنٍ من الثلج فآوتهُ منها الى مثل ظلمة الرمس ويومئذٍ تتجمد البحار فلا يكون ثمة موجٌ يتنفس　ولا سحابٌ يتبجس ولا سيلٌ يتدفق　ولا جدولٌ يترقرق　وتركد حركة الهواء فلا تهبّ شمالٌ

وهوّل بان هذه المصادمة ستكون سبب انقضاء العالم . ومع ان هذا الحادث من المحتملات فليس من الحوادث التي يمكن القطع بوقوعها ولا يُخشى منهُ اكثر مما يُخشى من سائر الحوادث الغيبية التي لم يقع بها انباءٌ ولا يدل عليها دليل . بل الانباء بمثل ذلك لا يخرج عن الرجم بالغيب لانهُ ولو صح ما انبأ به من مقاطعة هذا المذنَّب لفلك الارض فلا يمكن الجزم بحدوث هذا التقاطع وكلا الجرمين في العقدة لجواز ان يتأخر النجم في فلكه بما يعاوقهُ من جذب الاجرام التي يمرّ بينها مع ما يترجح وجودهُ من المادّة المنبثة في الفضاء فانهُ كثيراً ما حسبت مدد هذه الاجرام وقُدِر عودها في يومٍ معين فتخلفت عن موعدها لا اقلّ من يومٍ واحد وهو كافٍ لان تدير الارض بحيث لا يلحقها منهُ ادنى اذى

ولا صبا ولا تجري نسمةٌ على الوهاد والرُبى وأنّى والشمس مصدر الحركة في العوالم وقوام الحياة لكل قائم فاذا هبّت الريح فالشمس هي التي تهبّ واذا دبّت النعَم فالشمس هي التي تدبّ واذا انتشر الغمام فهي التي تنتشر واذا انهمرت الغيوث فهي التي تنهمر ألا والشمس هي التي تجري في الانهار وهي التي تغرّد في الاطيار وهي التي تزهر في الرياض وهي التي يُسمَع حفيفها في الغياض وعلى الجملة فالشمس هي روح الكائنات وفؤادها واذا ماتت الافئدة فمحالٌ ان تعيش اجسادها

لا جرَم ان الشمس ليست باول جُذوةٍ من نيران السماء ادركها الخمود والانطفاء فكم من نجمٍ نصّ المتقدمون على مكانهِ وموضعهُ اليوم خال بل منها ما دلت الدلائل على وجودهِ وهو غير مرئيٍّ في حال وانما الشمس من هذه النجوم فلا بدّ ان يدركها ما ادرك سواها اذا لم يفاجئها مفاجئٌ من مثل ما ذكرنا في الارض يعجّل منتهاها فانهُ لا دوام في الخلق ولكن كل ما لهُ اولٌ لهُ آخرٌ ولو بعد حين وانما البقاء لله تقدّست اسماؤهُ وهو وارث العالمين

ثم على فرض حدوث هذا الملتقى بين الارض والمذنَّب المذكور فان الخطر انما يكون اذا وقعت المصادمة بين الارض ونواة المذنَّب وهذا من الندور والاستبعاد بحيث لا يستحق ان يُبنَى عليهِ حذر وهو من الحوادث التي لم تقع في تاريخ الارض لا بعد وجود الانسان ولا قبلهُ لانهُ لو وقع شيء من مثل ذلك لدلت عليهِ الآثار الجيولوجية . ولكن جل ما يتوقع حدوثهُ من ذلك ان تخترق الارض ذنب النجم كما حدث في ٣٠ يونيو سنة ١٨٦١ على ما يرجحهُ اكثر العلماء ولكن ذلك لم يشعر بهِ احد ولم يُعلَم مرور الارض فيهِ الّا بعد خروجها منهُ

الروايات والروآئيون

لحضرة الكاتب البارع سليم افندي الخوري

لا يخفى ما لأُمم اوربا على العموم من الشغف بامر الروايات ولا سيما التمثيلية منها لما فيها من الحكمة في تهذيب الاخلاق وتنوير الاذهان وما تنطوي عليهِ من الحقائق تحت ثوب اللهو والفكاهة ولذلك اجمعت عقلآؤهم على اعتبارها من اعظم اركان المدنية وتفرغ اهل الادب والشعر منهم للاشتغال بها والتأليف فيها وربما دخل بعضهم في جملة ممثليها مما يدلك على شرف منزلتها عندهم . وما ذلك الا لما رأوا بالاختبار من حسن نتائجها وما لها من التأثير في اذهان العامة منهم وتنبيه الغافلين من الخاصة وارشاد الملوك والعظمآء الى ما يجب عليهم فعلهُ بان يُروهم العبرة في سواهم ويمثلوا لهم الحالة التي هم فيها بهيئةٍ تُظهر لهم حسنها من قبيحها . وقد اتسع مجال هذا الفن عندهم واصبح مستبَقاً لارباب الذكآء والالباب النيرة يتفننون في اساليبهِ وتصوير الحوادث فيهِ على اوضح صورها واشدّها تأثيراً في العقول حتى اصبح من رؤوس الفنون الادبية واصبح اربابهُ في اعلى درجةٍ من الحرمة والتجلة . وانظر الى ما كان من عهدٍ قريب من اهتمام الامة الانكليزية بمرض الكاتب الشهير المستر كبلنغ حتى كانت كانها باسرها اعضآء جسمٍ واحد يتألم بألم ذلك المريض ويترقب اخبار سلامتهِ ثم ما كان من شيوع امر مرضهِ في جميع اوربا واهتمام عظمآئها بهِ حتى توالت الرسائل البرقية من كل صوب في استطلاع انبآئهِ والوقوف على كنه احوالهِ بحيث كانوا وهم على بعد اميالٍ كثيرة كانهم آذانٌ صاغية الى ضربات قلبهِ المبشرة ببقآء حياتهِ

ولقد يعجب بعض الناس عندنا لسماعهم مثل ذلك ويستغربون هذا الاحتفال العظيم بامر هذا الرجل حالة كونهِ ليس من عظماء الارض وملوكها ولا من ساسة الممالك او مشاهير القوّاد ولا هو من علماء العصر وفلاسفتهِ ولا من اصحاب الاختراعات والاكتشافات المهمة ولكن جلّ ما يقال عنهُ انهُ رجلٌ من الكتاب قد اشتهر بتأليف الروايات يتفنن فيها باساليب بلاغتهِ ويزخرفها بطلاوة الفاظهِ ولم يُعرَف بشيءٍ من المباحث الجدّية كالحقائق العلمية او الصناعية او كشف شيءٍ من المنافع الطبية او ما اشبه ذلك من الفوائد العائدة الى مصلحة المجتمع الانساني

نعم لا يُنكَر ان الرجل ليس في شيءٍ من تلك المناصب العالية ولا على شيءٍ من هذه المباحث الخطيرة ولكن قيمة الانسان لا يُنظَر اليها من وجهٍ مخصوص والعلم لا يكون كلهُ صنفاً واحداً ولا تقف الفائدة منهُ على مبحثٍ معلوم . وهذا علم التاريخ مثلاً فانك اذا اعتبرتهُ من حيث هو لم تجدهُ الا اقاصيص واخباراً لا يستفاد منها شيءٌ من الامور المذكورة ولكنهُ مع ذلك معتبرٌ من اجلّ العلوم النافعة بما يعطي من البصيرة في احوال الحياة والعبرة باحوال من مضى لان حوادث هذا الكون تتكرر على الغالب اذ « ليس تحت الشمس شيءٌ جديد » . والروايات اذا نظرت اليها نظر المتبصر وتعقلت كنهها والغرض من وضعها وجدت انها لا تخرج عن غرض التاريخ نفسهِ الا انها تمثل لك الوقائع التاريخية بصورتها الحسية حتى تكون كانك شاهدٌ لها شهود العيان ولا يخفى ما في ذلك من قوة التأثير في مقام العبرة وفضل التمثيل الروآئي على القَصَص التاريخي الذي كثيراً ما يبعث الملل

في نفس القارئ لما فيهِ من وحدة السياق وتوالي الاخبار مجردةً عن الاشخاص القائمين بها وهيهات ان يقوم الخبر مقام العيان . ومثل ذلك مثل ما اذا اردت ان تشخص هيئة انسانٍ لشخص لم يرَهُ فانك مهما وصفت لهُ من حلاهُ واشكالهِ ولونهِ وملامح اعضآئهِ لا يستطيع ان يتصورهُ ويستحضر هيئتهُ في ذهنهِ كما لو اريتهُ صورة الشخص نفسهِ فان نظرةً واحدة من تلك الصورة تكفي لتصوُّرهِ وتشخيصهِ بما لا يصل اليهِ الوصف ولا تبلغهُ النعوت مهما كانت دقيقة

ولنضرب لذلك مثلاً رواية صلاح الدين الايوبي التي انشأها نابغة عصرهِ وشكسبير الروايات العربية فقيد هذا الفن المرحوم الشيخ نجيب الحداد فانك اذا حضرت حوادثها تتشخص امامك على ساحة التمثيل ظهر امام عينيك الاشخاص الذين دارت تلك الحوادث بينهم فرأيتهم باشباحهم وحركاتهم وسمعت كلام كلٍّ منهم بلهجتهِ الطبيعية وتجلت لكَ صفاتهم واخلاقهم بما يشعرك من نفسك بالتأثير الذي تشعر بهِ لو كنت حاضراً بينهم حتى كانهم احيآء معك تسمع اقوالهم وتشاهد افعالهم وحتى ينتقل بك التصور الى ان تتوهم تلك الوقائع حقيقية تجري امامك ويبقى عنها في ذهنك خيالٌ لا يمحى . وهذا كلهُ لا يمكن ان تشعر بهِ من مجرد مطالعة التاريخ مهما فصّل لك المؤرخ واطال في الوصف فضلاً عما يعلق في ذهنك من العبر والحكم بما يُمثَّل امامك من الحركات والاقوال التي تصوّر لك الفضيلة والرذيلة والعدل والجور والوفآء والغدر والصدق والكذب الى غير ذلك من الخصال بارزةً كل واحدةٍ منها في ثوبٍ يحببها الى المشاهدين ويرغبهم في

التزامها او يبغّضها اليهم وينفرهم من اتيانها . ولهذا المعنى كانت الروايات التمثيلية من انجع الوسائل وافعلها في تثقيف الاخلاق واصلاح العادات وتنوير العقول وحث النفوس على الكمالات الانسانية وهذا ما حدا الغربيين على اعتبار هذا الفن الجليل فرفعوا منارهُ وشرّفوا ذويهِ وكان مؤلف الروايات عندهم لا ينحطّ عن مقام العالم والفيلسوف والمخترع والمكتشف بل قد يكون نفع بعض اهل العلم خاصاً بفريقٍ من الناس حالة كون الروآئي ينفع بتآليفهِ جميع الطبقات من خاصة الناس وعامتهم ولا يخفى ان العامة احوج الى من يفيدها ويهذبها فقد تكون الروايات من هذا هذا الوجه اعظم فائدةً من كتب العلم التي لا يتناول فوائدها الا اناسٌ معدودون ممن تمكنهم احوالهم من الانقطاع للدرس والتعلم

ومن الغريب في هذا المقام ان نرى بعض الكتاب عندنا ممن يتوهمون في انفسهم الحكمة وسموّ المدارك والاحاطة باطراف العلم والسياسة يطعنون في الروايات التمثيلية او كما يسمونها « الروايات التياترية » ثم لا يكفيهم ذلك حتى يصفوها « بالسافلة » وهي اول مرةٍ أُطلق فيها هذا الوصف على هذا الفن الشريف مع ان الامم الغربية بالاجمال وفيها ملوكها وعظمآؤها وعلمآؤها وحكمآؤها وسياسيوها تحلها في ارفع مقام من مقامات المدنية والتهذيب ونرى من الذين اشتغلوا بها امثال شكسبير وموليار وكرنيل وفولتير وراسين وهوغو وغيرهم من اهل هذه الطبقة . فما كان احوج اولئك الاقوام الى رجلٍ من « الشرق » يأتيهم في هذه « الفترة من الزمن » فينير ظلمات عقولهم « بمصباح » افكارهِ الثاقبة وآدابهِ الصائبة بل ما احوجنا الى اناسٍ يسعون

بيننا بالخير ويرشدون هذه الامة الى ما يُلحِقها بسائر امم العصر ولا يكونون عقبة في سبيل الساعين باصلاح شؤونها اصلح الله نياتنا وجمع قلوبنا على الاخلاص وكلمتنا على الصدق والله حسبنا وهو الهادي الى سوآء السبيل

خواطر مستطرفة

في الموسيقى

لحضرة الاديب المتفنن نقولا افندي الحداد

(تتمة ما في الاجزآء السابقة)

١١

اما الفرق بين الموسيقى العربية والافرنجية وايهما اشدّ اطراباً فمما يصعب الحكم فيهِ اذ لا يخفى ان كل امةٍ تلتذ بموسيقاها وتؤثرها على سواها وما دام الاستحسان راجعاً الى ذوق المستحسن والناس مختلفون في الاذواق فلا افضلية لواحدة على الاخرى . على انهُ وان لم تكن هناك افضلية باعتبار الاذواق فلكل موسيقى ما تمتاز بهِ وللموسيقى العربية مزيتان لعلهما تجعلانها احسن وقعاً واشد تأثيراً

الاولى ان الالحان الافرنجية موقعة كلها على الدرجات الاصلية في السلم الموسيقي ويندر ان يُعدَل في لحنٍ منها عن درجةٍ اصلية الى اخرى فرعية اي الى شيء من الانصاف المخفوضة او المرفوعة ولا يُحتاج الى الدرجات الفرعية عندهم الا لرفع السلم على الآلة اذا كان اللحن منخفضاً او خفضهِ اذا كان اللحن عالياً بحيث تصبح الفرعية اصلية . والغرض من ذلك

ان ينطبق اللحن على درجة صوت الانسان الطبيعي من حيث العلو والارتفاع فيتغناهُ براحة

اما الالحان العربية فيكثر فيها جدًّا ابدال الدرجات الاصلية بالفرعية التي هي الارباع ولا يخفى ما في ذلك من المجال الفسيح للتفنن في التطريب بحيث تؤلَّف الالحان مطابقةً لحالات الانسان المختلفة . ولهذا تعددت ضروب الالحان عند العرب او بالاحرى عند الشرقيين عموماً الى ان بلغت نحو المئة منها احد عشر ضرباً اصلياً يقرّ كلٌّ منها على درجةٍ من الدرجات الأُوَل المسماة في جدول السلم العربي كما مرّ وهي ما عدا المحير والبزرك والماهوران والرمل توتي وباقيها يشترك بين الجميع . وهذه الضروب يختلف بعضها عن بعض بابدال الدرجات بارباع ولو بربع واحد وذلك كما في النهاوند والبياتي مثلاً فاننا اذا قسناهما على السلم الاصلي وجدنا انهُ في النهاوند يستبدَل السيكاه بكردي والحسيني بحصار والاوج بنَهُفت وفي البياتي يستبدل الاوج بعجم وكل ذلك ليس منهُ شيءٌ في الالحان الافرنجية بل هي ملازمة للسلم الاصلي فلا تشذ عنهُ الا نادراً جداً ولعل هذا الندور في الحانٍ مقتبسة عن الشرق

ولا يخفى ان ضروب الالحان لا قيد لها في الايقاع والتطريب بل هي مقيدة بالابدال والقرار المشار اليهما فقط ويمكن تأليف الحان غير متناهية العدد في ضربٍ واحد . فكل اغنية تبدل فيها درجة الاوج بالربع المسمى عجماً وتقرّ على الدوكاه مثلاً تسمى اغنية بياتي وهكذا كل اغاني البياتي تتفق في ذلك الابدال وهذا القرار ولكنها تختلف بالايقاع وتأليف الانغام

اختلافاً ظاهراً جدًّا . والموسيقيون البارعون يميزون بين ضروب الالحان من مجرد سماعها لان الابدال المشار اليهِ يُظهِر اللحن في لهجة خصوصية تحاكي حالةً من حالات الانسان . ومن ذلك انهم يعتبرون نغم الحجاز مثلاً شجياً يحاكي النواح ويلذ للحزين ونغم العشاق محزناً يحاكي الانين ويلذ للمفارق والبياتي مطرباً يحاكي السرور ويلذ للفرِح والنهاوند مشوّقاً يحاكي التأوه ويلذ للمشتاق ونحو ذلك

ثم ان بعض الاغاني تتألف من لحنين او اكثر اي تكون اجزآؤها من ضروب مختلفة فتبتدئ بالحجاز مثلاً ثم تنتقل الى البياتي وتنتهي اخيراً بالصبا . ويغلب ان تكون الالحان المركبة متقاربة الابدال والقرار لكيلا تكون نافرة

ثانياً ان الموسيقيين الشرقيين واخص منهم المصريين لا يقيدون انفسهم بايقاعٍ محدود لا يتعدَّونهُ بزيادة او نقصان او تغيير بل يطلقون الحرية لتطريبهم فيتفننون ما شآءوا في اثنآء الغنآء والعزف بان يدمجوا في اللحن الذي يغنونهُ جملاً موسيقية شجية يبتكرونها في الحال حسبما يرشدهم وجدانهم وانفعالاتهم من الاحوال المحيطة بهم ومن معنى الاغنية التي يتغنونها بحيث يكون التطريب والترجيع موافقين للمعنى تماماً كأن يكون المعنى مثلاً تشكياً من صد الحبيب فيكون اللحن كانين المضنى الشاكي ونواح المبرَّح الباكي وبذلك يزيدون اللحن حسناً وجمالاً فيزيدهم طرباً ولذة

وكثيراً ما تأخذ المغني او العازف حالٌ كالغرام او التوله او السرور الشديد فيأتي من غرائب التطريب ما يقصر هو نفسهُ عنهُ لو تعمدَّهُ في غير تلك الحال . ويكثر الابتكار والتفنن فيما يسمى بالتقسيم وهو صنفٌ من

الغناء ليس لهُ ايقاعٌ مخصوص او مضبوط بل يتفنن فيهِ المطرب او العازف بحسب ذوقهِ وارشاد وجدانهِ ويكثر ان يُصطلح لكل ضربٍ من الالحان على تقسيمةٍ مألوفة

ولا يخفى انهُ لو تقيدت الالحان العربية بايقاعات مخصوصة مضبوطة ورُبطت بعلامات موسيقية كالحان الافرنج لضعف تأثيرها بتقيُّد حرية المغني او العازف بتلك الضوابط التي لا تفسح لهُ في التفنن المشار اليهِ

ويُستدَلّ من ذلك ان الموسيقيين الشرقيين شديدو الذكآء في الايقاع لانهم يعزفون على الآلات ولا دليل لهم الاّ الذوق العقلي فقط ولذلك ترى العازف منهم على عودهِ او قانونهِ مثلاً يوافق المغني في غنآئهِ مهما تفنن وابتكر ولا يشرد عنهُ الا ما ندر . ومما يحسن ذكرهُ ان الجوقات الشرقية الموسيقية يتفق افرادها في العزف كل الاتفاق بغير الاعتماد على علامات تقودهم الى الوفاق

اما الالحان الافرنجية فتمتاز بالمساوقة (Harmonie) وهي ان يكون اللحن رباعيّاً اي ذا اربعة الحان مختلفة ولكنها متوافقة يستحسنها الذوق ويُتغنى بها كلها معاً . وهي بحسب ترتيبها بالنظر الى علو الصوت كما يأتي السبُرانو وهو الاعلى ترنمهُ الاصوات العالية من النسآء . ويليهِ الأَلتو للاصوات المنخفضة منهنَّ . ثم التنَر وهو للاصوات العالية من الرجال . ثم الباز للاصوات المنخفضة منهم . والسبرانو هو اللحن الاصلي والبقية فرعية تضم اليهِ لاجل المساوقة . اما الشرقيون فلم يألفوا المساوقة ولهذا قلما يستحسنونها ومرجع ذلك الى العادة كما قلناهُ في غير هذا الموضع

فلنا مما تقدم ان الافرنج اتقنوا الموسيقى من حيث هي صناعة فضبطوها بالعلامات لكي يسهل تعلمها على الجوقات مهما كثر العازفون والعرب تفننوا فيها جدًّا من حيث هي داعٍ للطرب واللهو فاجادوا في محاكاة الوجدانات والانفعالات النفسانية . على ان للافرنج ايضاً اجادات من هذا القبيل لا تنكر

هذا ما بدا لي في هذا الشأن وانا لا آمن ان اكون قد خالفت في بعضهِ وجه الاصابة كما لا اتبرأ من السهو في سائر ما قررتهُ في هذه المقالة والله اعلم بالصواب

مُتَفَرِّقَاتٌ

قدور بغير نار ـ تقدم لنا في الجزء السابع في الكلام على الهوآء السائل انهم اذا راموا منعهُ من سرعة التبخر جعلوهُ في قارورةٍ من الزجاج ذات جدارين متظاهرين يفرَّغ ما بينهما من الهوآء بحيث يكون هذا الفراغ مانعاً لوصول الحرارة من الهوآء المحيط الى داخل القارورة فيبقى الهوآء هناك على سيلانهِ مدة خمسين ساعة فما فوق

وقد ترتب على هذا الاختراع امتحانات شتى منها انهُ اذا جُعِل الهوآء السائل في اناءٍ من هذا النوع من الزجاج المفضض لم يتبخر منهُ الا ثلاثة غرامات في الساعة فاذا كان بحيث يكون موسوعهُ لترين من الهوآء السائل امكن ان يبقى على سيلانهِ زيادةً على ١٥ يوماً ولو جُعِل فيهِ مكان الهوآء السائل ماءٌ حارٌّ بقي على حرارتهِ عدة ايام محفوظاً في هذه الطبقة من الفراغ وهي

تكون عادةً من سنتيمتر الى سنتيمترين

واستبدل بعضهم الآنية الزجاجية بآنية معدنية فكان لها الخاصيّة نفسها الا ان هذه تفضل تلك بانها غير قَصِمة فتصلح لأَن تتخذ بمنزلة قدور يُطبخ فيها . وذلك ان اللحم والارزّ والخضراوات بانواعها يكفي لطبخها ان تلبث مدةً على حرارةٍ ذات ٨٠ درجة فتُحمَى القدر على النار بضع دقائق او يُجعَل فيها ماءٌ حارٌّ ثم يوضع فيها ما أُريد طبخهُ فلا يلبث ان ينضج لبقاء الحرارة هناك على درجتها من غير ان تحتاج الى تجديد

وارتأى بعضهم ان ما ذُكر من قطع الصلة بين الهواء المحيط والهواء الداخلي بتوسط الفراغ المذكور يمكن ان يُستخدَم بالصفائح المعدنية ذات الجدارين المفرَّغ ما بينهما لمنع البرد او الحرّ من دخول المنازل وان يُستعمَل في الآنية لحفظ الاطعمة الحارّة والثلج وغير ذلك ولا ريب ان هذا الاستنباط سيكون لهُ موضعٌ مهمّ في كثيرٍ من الاستخدامات العلمية والعملية

قمرٌ جديد لزُحَل ـ ورد نبأٌ برقي من المكتب الفلكي في كيال يعلن اكتشاف قمرٍ تاسع لزُحَل اكتشفهُ الاستاذ پيكرين وهو يبعد عن السيّار نحواً من ٧٤٥٠٠٠٠ ميل ولعلّ هذا البعد الشاسع هو السبب في عدم تنبُّههم لهُ الى اليوم ومدة دورانهِ حول السيار سبعة عشر شهراً

اما قطر هذا القمر فلم يُقَس الى الآن قياساً مدققاً بسبب صغر حجمهِ ولكن الذي في تقديرهم ان قطرهُ يكون نحواً من ٩٥ ميلاً فهو من الاقمار المتوسطة الحجم لانهُ اصغر كثيراً من قمر الارض او احد اقمار المشتري

المعروفة قديماً ولكنهُ اكبر كثيراً من قمري المريخ

الاتجاه الطبيعي في النوم ـ جآء في احدى المجلات العلمية ان من عادة الفرنسيس ان يجعلوا رؤوسهم في النوم الى جهة الشمال قالت وقد فحصت جمعية العلوم الفرنسوية هذه العادة فاثبتت ان لها سبباً طبيعياً وذلك انهُ كان في جملة المجرمين عندهم رجلٌ قد حكم عليهِ بقطع الرأس فلما أُنفذ الحكم فيهِ عمدوا الى جثتهِ فجعلوها على محورٍ مدملك الرأس بحيث يمكن ان تدور عليهِ الى كل الجهات بلا معاوق فبعد ان رفعوا الجثة عليهِ دارت قليلاً حتى صارت جهة الرأس الى الشمال ثم وقفت فاعادوا الامتحان بان ادار احدهم الجثة نحو ٩٠ درجة فلما تركها عادت فتحركت حتى انتهت الى وضعها الاول وكرروا الامتحان عدة مرات حتى انقطعت الحركة العضوية وكانت تنتهي في كل مرةٍ الى الاتجاه عينهِ وهو سرٌّ غريب

اسئلة واجوبتها

القاهرة ـ قرأنا في ترجمة حياتكم المنشورة في مجلة الاجيال (الجزء الثاني من السنة الثانية) ان اسفار العهد القديم والعهد الجديد المنسوبة الى الآباء اليسوعيين هي من تعريب حضرتكم ثم رأينا ذلك بعينهِ في جريدة الايام التي تطبع في نيويورك في العدد الصادر بتاريخ ١٦ شباط سنة ١٨٩٩ . ولكننا لما تفقدنا في الكتاب نفسهِ لم نجد لحضرتكم اسماً لا في صدر الكتاب ولا في الفصل المعنون بخطبة المترجمين بل رأينا في الخطبة المذكورة

ما يستفاد منهُ ان تحرير الترجمة وتهذيب عبارتها وضبطها بالشكل كل ذلك من عمل اصحاب الترجمة وظاهرهُ ان المراد بهم الآباء اليسوعيون انفسهم الذين سعوا بترجمة الكتاب وطبعهِ اذ لم يصرَّح باسم احدٍ مخصوص هناك . ولا اكتم عن حضرتكم ما اخذني من العجب بل الاسف عند ما رايت مثل هذا الفضل الكبير يذهب سدًى ولا يكون لصاحبهِ ذكرٌ مع اننا راينا مرسلي الاميركان قد ذكروا اسماء الذين اشتغلوا في تعريب نسختهم في فصلٍ مخصوص من كتاب مرشد الطالبين الذي يعلَّم في مدارسهم حيث اوردوا تاريخ هذه الترجمة وصرَّحوا باسم كل من كان لهُ يدٌ فيها من المعرّبين وغيرهم . وبناءً عليهِ جئت اسال حضرتكم بيان هذه الحقيقة بما يكشف الستار عن هذا المعمَّى الذي يهمّ حلهُ كل من طالع هذه الترجمة من ابناء الوطن بل يهمّ كل منصفٍ يسرّهُ ان يرى الحق معروفاً لاهلهِ معترفاً بهِ لذويهِ والسلام على المولى الجليل ورحمة الله نقولا الحداد

الجواب ـ قد علمتم أن هذا الكتاب ليس كسائر الكتب التي يراد منها بيان فضل المشتغلين بها وانما القصد منهُ الى ما هو اسمى من ذلك من القربة الى الله عز وجل والخدمة العائدة الى مصلحة النفوس ولذلك اعتاد المترجمون لهُ الى كل لغةٍ ان يهملوا اسماءهم من عنوان الكتاب تجافياً عن ادّعاء شيءٍ من الفضل لانفسهم وتورعاً عن ذكر اسمائهم في جنب اسماء الذين كتبوهُ من رجال الوحي المذكورة اسماؤهم في باطنهِ . واما اهمال ذلك من خطبة الترجمة فلأنهُ كان الغرض منها بيان الداعي الى ترجمة الكتاب مع وجود التراجم الاخرى وذكر ما بُذِل فيها من العناية والتحرّي

دون ذكر الاشخاص الذين تمّ هذا العمل على ايديهم مما لم يُغفِلوا بيانهُ في هذا الموضع الا ليثبتوهُ مفصلاً في تاريخ اعمال الرسالة اليسوعية في الاقطار الشامية . على انهم قد نشروا في ذلك فصلاً مطوّلاً في جريدة البشير في العدد الصادر بتاريخ ١٦ حزيران من سنة ١٨٨١ وهي سنة الفراغ من طبع الكتاب ذكروا فيهِ تاريخ العمل ونوّهوا باسم هذا العاجز بما لم يبقَ معهُ مجالٌ للريب . وهذا نصّ الفصل المذكور نوردهُ بالحرف

« قد تيسر لنا بحول الله وتوفيقهِ الفراغ من تمثيل المجلد الثاني من كتاب الله تعريباً وطبعاً وهو القسم الثاني من اسفار العهد العتيق وبهِ كان الفراغ من هذا العمل الجليل بعد ان اقمنا عليهِ ما ينيف على ثماني سنين متوالية . والحمد لله انهُ جآء على وفق ما في الآمال وتُلُقّي من لدن الخاصة والعامة بالقبول والاقبال وقد قلّد بتقاريظ نيافة الرؤسآء الراشدين على ما اثبتناهُ في صدر المجلد الاول منهُ وما زلنا نرى من زيادة الرغبة فيهِ والاقبال عليهِ ما يؤيد ذلك الثناء ويبشرنا بوقوعهِ موقع الايثار والاستحسان عند الجميع

« ثم ان في اكثر الاسفار المشتمل عليها هذا المجلد من غموض المعنى وخفآء السريرة ما لا حاجة الى التنبيه عليهِ وذلك لِما أُودِعتهُ من الرموز السرية والاغراض المكنونة مع ما في عبارتها من اتساع مذاهب الاحتمال وتباين وجوه التأويل لِما أنها في اصلها كلامٌ شعريٌّ تكثر فيهِ الاستعارات والكنايات وتتشعب طُرُق المجاز ويُنحَى فيهِ منحى الايجاز والبلاغة على خلاف المألوف في الكلام المنثور . وفي هذا الوجه من التعبير مع ما سبق بيانهُ من خفآء الاشارات وتحجب المضامين ما ترتدُّ دونهُ البصائر حاسرة

ويستوقف الاوهام بين مفصلي القصد والزيغ وما لا يتأَتى معهُ اصابة المراد على وجهٍ يؤمن فيهِ ركوب الشطط الاَّ بعد سعة التبحر في علمي اللاهوت والتاريخ وفي اللغات القديمة من نحو اللاتينية واليونانية والسريانية والكلدانية واول كل شيء بعد الاحاطة باسرار اللغة المنقول عنها والتضلع من علمي التفسير والنقد الكتابيين . ولذلك نعترف في هذا المقام جهراً ولا نخشى ان ينكر علينا احدٌ ممن لهم اقلُّ المام بالعلوم الالهية بان هذا العمل قد اقتضى منا ان نأتي فيهِ على جميع ما وصل اليهِ امكاننا من التجهيزات العلمية والاجتهادات العملية تذرُّعاً الى تحقيق تلك المقاصد المكنونة وتجريد تلك المغازي من حجب الرموز وابرازها في مثالٍ من اللفظ يطابق المراد من معانيها ولا يباين الحرف المكتوبة بهِ

« وهذا الذي اشرنا اليهِ من الاشكال في التعبير والدقة في المغزى لا تكاد تخلو عنهُ صفحة من صفحات هذا المجلد ولذلك اضطُرِرنا في بيان تلك الغوامض الى الاكثار من عدد الحواشي وزيادة البسط في ايضاحها على قدر ما يسعهُ اسلوبنا في هذه الترجمة بما لم نتوصل اليهِ في المجلدين الآخرين . وهذا احد الاسباب التي اوجبت زيادة الابطآء في ابراز هذا المجلد على طول انتظار الجمهور لهُ وشدة تقاضيهم اياهُ ولكنا على يقين من انهم سيجدون في مطالعة هذه الحواشي من الفائدة والارتياح ما يذهب بآثار ذلك الملل على حين يرون فيها حلاًّ لجميع المشاكل الواردة في اثنآء الاسفار المشار اليها لا يكاد يتخلف منها شيءٌ مما تهمّ معرفتهُ وتمس الحاجة اليهِ وهي برمتها مأخوذةٌ عن اصح التقاليد الكاثوليكية ومصادر العلم

الكتابي واجدرها بالثقة والركون

« وهنا نطلق عنان القلم بالثناء على حضرة الفاضل الالمعي الوارث العلم عن غير كلالة نعني بهِ الشيخ ابرهيم ابن الطيب الذكر الشيخ ناصيف اليازجي العالم اللغويّ المشهور الذي هو فخر لبنان وحجة النصرانية في هذه الاقطار فانا مذ هممنا بهذا العمل لم نزل نشعر من انفسنا بشدة الحاجة الى من نستعين بهِ في امر العربية لِما لم نَسْهُ عنهُ من ان الاجنبي عن هذه اللغة مهما اخذ نفسهُ بمراجعة قواعدها ووعى من محفوظها لا ينبغي لهُ ان يُقدِم على التأليف فيها ما لم يستظهر على سداد قصدهِ بواحدٍ من علمآئها يقيم من عبارتهِ ما انآد عن وجه الصواب ويبدي من مرادهِ ما خفي تحت ظلال الابهام حتى وفَّقنا الجَدّ الى اختيار الفاضل المشار اليهِ من بين اشهر علمآء العربية في هذه الآفاق فعكف على ممالأَتنا في هذا العمل الطويل لم يأْلُنا في تلك السنين كلها دأَباً ولم يدَّخر جهداً في تصحيح عبارة الترجمة وتثقيفها وضبطها وترصيفها بحيث افرغها من بلاغة قلمهِ في قوالب جاءَت بها صُوَر المعاني ممثلة تمثيلاً وكساها من ديباجة لفظهِ وطراز اسلوبهِ ما زادها حسناً وقبولاً حتى جاءَت ولا نخشى في القول مردًّا افضل ترجمة لهذا الكتاب الالهي في العربية تماثلَ في الصحة لفظها ومعناها وتلاقت محاسنها وجدواها والله نحمد على الختام متوسلين اليهِ ببركة هذا الكتاب الكريم ان يجعل عملنا فيهِ خالصاً لمجدهِ العظيم وان ينير بهِ البصائر ويُجزل بهِ فوائد النفوس ويجعلهُ مظهراً لبركات روحهِ القدوس بمنهِ وكرمهِ »

فكاهات

رواية

الساعة الرملية [1]

من طباع موسري الافرنج ومترفيهم الولوع بجمع الطُرَف النادرة والاشيآء القديمة من ادوات الزينة واللُعَب والتماثيل وغيرها يزينون بها منازلهم ويفتخرون بمقتناها لعزّة وجودها وغلآء اثمانها ولهذه الطُرَف مخازن مخصوصة يقصدها اهل هذا الشأن فيجدون فيها كل غريب من الاشيآء المذكورة . وان رجلاً من اغنيآء لندن يقال لهُ برترام استفورد من المولعين بهذه الطُرَف كان يمرّ كل يوم على مخزنٍ من المخازن التي اشتهرت بجمع نفائسها فيختار ما يستحسنهُ منها ويؤدي ثمنهُ بالغاً ما بلغ حتى انفق جانباً كبيراً من مالهِ في ذلك المخزن . ومرّ من هناك في احد الايام فاستوقفهُ مرأى ساعةٍ رملية قديمة العهد نقية الزجاج فيها رملٌ احمر يسيل من احدى محجمتيها الى الاخرى فاستحسنها ولم يملك نفسهُ ان دخل المخزن وساوم صاحبهُ فيها حتى اتفقا على ثمنها فدفعهُ برترام بنفسٍ طيبة وهو مسرورٌ بهذه التحفة الانيقة . وقبل ان يخرج بها قال لهُ البائع لا تعتمد على دِقة هذه الساعة في تحرير الوقت فانها تقف في بعض الاحيان لان رملها غير

(١) معربة عن الانكليزية بقلم نسيب افندي المشعلاني

متناسب الحجم فينبغي لك ان تهزّها قليلاً فتعود الى مجراها . فقال برترام اني لم اشترِها لمعرفة الوقت ولكن رغبةً في مقتنى هذا الاثر القديم ثم اخذها وخرج

وبعد ما بلغ برترام منزلهُ وتناول طعامهُ دخل غرفتهُ وجعل يقلّب تلك الساعة وقد جلس ووضعها على ركبتهِ وهو يراقب سيلان الرمل فيها وكلما فرغ الرمل من جانب ردّها على الجانب الآخر وهو يعجب من حالتها . وبينا هو يقلّبها وينظر فيها رأى على طرفيها قطعتين من خشب السنديان قد اسودّتا لطول العهد وقد نُقش على احداهما صورة قابين يربطهما شيء اشبه بالثعبان . ومرّت بهِ الساعات وهو يلهو بتلك الآلة الغريبة ولا يشعر بنفسهِ الى الساعة الواحدة بعد نصف الليل واذا بباب غرفتهِ يُقرَع ففتح فاذا فتىً بملابس الجندية قد دخل عليهِ خفيف الحركة رشيق القوام فحيّا باحترام ولبث واقفاً . فتعجب برترام من دخول ذلك الغريب عليهِ في تلك الساعة بدون تعريفٍ ولا اشعار واشار اليهِ بالجلوس فابى وقال ائذن لي يا مولاي ان اعرّفك بنفسي . انا ملازم اول في الجيش واسمي سنتور وقد اتيت اطلب ساعتي الرملية هذه . فقال برترام اظنك واهماً ايها الصاحب فان هذه الساعة مشتراة بالثمن وان احببت دللتك على الموضع الذي اشتريتها منهُ . قال قد علمت ذلك ايها السيد غير ان الساعة لي ولها تأريخٌ صغير اذا قصصتهُ عليك فلا اشك انك تردها عليَّ وتأخذ مني ثمنها الذي دفعتهُ مع الربح ان احببت . قال برترام لا اقدر ان اجيبك بشيء قبل ان اقف على حقيقة الامر فتفضل اجلس وقصّ عليَّ ما بدا لك . فتقدم الملازم وجلس

على كرسيّ بازاء برترام ثم التى نظراً طويلاً على تلك الساعة وهي على ركبة برترام وتنفس الصعداء ثم ابتدأ في حديثه فقال

كنت في سنة ١٧٠٦ ملازماً في الجيش البريطاني في فرقة القائد تريلوني من قوّاد البطل ملبروك العظيم . فلما كانت الحرب الاسبانيولية التي دامت اربع سنوات واشتهرت وقائعها كانت فرقتنا في برابنت فصدرت الاوامر بان ننضم الى جيش الدوك ملبروك في الجانب الثاني لحضور المعركة التي ستكون الحد الفاصل بيننا وبين الفرنسيس . فقمنا من برابنت مسرعين وكنا نمرّ على المدن فاذا وجدنا في طريقنا حصوناً دككناها او جيوشاً فرّقناها او قوةً للعدوّ ابدناها عملاً باوامر القائد تريلوني . ولما بلغنا مدينة ألسنكور استولينا عليها بدون اراقة دم لان حامية المدينة كانت قد تركتها وتحصنت في قلعةٍ منيعة جدًّا فقصدنا القلعة وهاجمناها مراراً وكنا كل مرةٍ نرتدّ عنها خاسرين فبلغ الغيظ من القائد وامر ان لا نبرح تلك المدينة حتى نهدم القلعة . وكان العسكر قد اعياهُ المسير فتفرّق حيناً للراحة ريثما يكون القائد قد روّأ في امر القلعة واتخاذ الطرق التي تمكننا من الاستيلاء عليها . اما انا فتوجهت الى فندقٍ هناك لتناول الطعام ولما جلست على المائدة كانت بازآئي فتاةٌ انكليزية بديعة الجمال لم تكد تقع عيني عليها حتى اخذت بمجامع لبّي وبعد ان فاتحتها الحديث علمت ان اسمها مرغريت وانها سائحة في تلك النواحي وراجعةٌ الى وطنها بعد قليل . فاغتنمت مدة بقآئنا هناك واكتريت لي غرفةً في الفندق وكنت اقضي اكثر اوقات الفراغ معها في الحديث الى ان تمكن الحب بيننا وفي اثنآء ذلك اهدت لي

مرغريت هذه الساعة التي على ركبتك الآن لتكون تذكاراً لها عندي فنقشت عليها رسم قلبين يشبك بينهما الحرفان الاولان من اسمها واسمي

وكنا لما قصدنا تلك الارض لم نستصحب معنا المدافع الضخمة فتعذّر علينا التغلب على القلعة بدونها وارسل القائد تريلوني الى الدوك ملبروك يعلمهُ بما اوجب تأخرهُ ويسألهُ الامداد ففرحت بهذا التأخير فرحاً عظيماً لانهُ كان سبباً في اطالة مدة اجتماعي بمرغريت فلم اكن افارقها الا عند قضاء واجبٍ مهمّ . وبعد يومين من اقامتنا بالبلدة بينا كانت مرغريت في غرفتي ونحن نتحادث سمعت وقع خطواتٍ فعرفت للحال انهُ قائدي آتياً اليَّ في شغل فخرجت مرغريت ثم دخل القائد بوجهٍ منقبض تلوح عليهِ علائم التفكر والاهتمام وبعد ان جلس قال لي اني قد صممت على فتح القلعة في هذه الليلة فهل يمكنني ان اعتمد عليك في امرٍ مهمّ . قلت لبّيك فمرني بما تشاء . قال أَحضِر خمسة وعشرين من رجالك وأبقِهم هنا سرًّا وبعد ساعةٍ توجه بهم الى القلعة واهجم على بابها الغربي حتى تنجذب الحامية كلها الى ناحيتكم وحاولوا ان تشغلوهم هناك ريثما اكون انا قد هجمت من الناحية الشرقية وفتحت القلعة واذا تمكن احدكم من دخول القلعة لم أُغفِل ترقيتهُ ومكافأتهُ . ثم قال الآن الساعة التاسعة فاذا سرتم الساعة العاشرة بلغتم باب القلعة بعدها بنصف ساعة فاكثروا من الجلبة عند وصولكم ليخال القوم ان كل قوتنا هناك فلا يبقى احدٌ في الجهة التي انوي مهاجمتها فهل عندك ساعة . قلت ليس عندي سوى هذه الساعة الرملية . قال حسنٌ فدعها تجري وفي تمام الساعة سِرْ برجالك كما امرتك واياك الخلاف ثم خرج وهو

يحرّضني • فبادرت وجمعت رجالي واقمت انتظر حلول الوقت وانتهاء سقوط الرمل وفيما انا كذلك اذا بمرغريت قد عادت فغصنا في حديث الحب وانا اراقب الساعة حيناً بعد حين فارى الرمل لا يزال كثيراً في قسمها العلوي فاعود الى الحديث ناعم البال • ولما طال الوقت كثيراً ورأيت ان الرمل لا يتناقص دنوت من الساعة وتأملتها فاذا هي واقفة فكأن صاعقةً هبطت عليّ ووقفت لا ادري ما اصنع • وادركت مرغريت ما انا فيه من الاضطراب فقالت قد نسيت ان اخبرك ان الساعة تقف احياناً فينبغي ان ان تُهَزّ حتى تعود الى جريها • فلما سمعت صوتها تنبهت من ذهولي وطرت كلمح البصر الى حيث الرجال بانتظاري وسرت امامهم وانا كمن فقد الشعور وكان لمعان بارود المدافع ينير طريقنا في ذلك الظلام • غير اننا لم نسر الا قليلاً حتى التقيت بالقائد تريلوني وقد صُبغ وجههُ بسواد الدخان وتغطت ثيابهُ بالغبار فلما وقعت عيني عليهِ شعرت بدنوّ الاجل ووقفت كمن لا حراك بهِ • فقابلني بتمام الرزانة وقال ايها الملازم اصرف جنودك الى اماكنهم فامرتهم فانصرفوا ثم قال انك من هذه الدقيقة موقوف فاذهب الى غرفتك وانتظر قدومي

ولما كنت عارفاً باخلاق قائدي لم ابدِ اقلّ معارضة فحنيت رأسي خاضعاً ورجعت الى غرفتي ولما دخلتها نظرت الى الساعة فوجدت الرمل قد عاد يتساقط كالاول • ولم تمضِ دقائق قليلة حتى وفد عليّ القائد وبصحبتهِ ضابط واربعة من الجند وكانت علامات الغضب والهياج مرتسمةً على وجههِ مع انهُ كان يجتهد في تسكين غيظهِ على ما هي عادتهُ

في مثل تلك الحال . ثم حدّق بنظرهِ اليَّ وقال ايها الملازم سنتور لما ذا لم تطع الاوامر . قلت يا مولاي اني كنت متكئاً على الساعة الرملية فتوقّف جريها ولم انتبه لذلك الا بعد فوات الوقت . فحوّل القائد وجههُ الى الساعة كمن ارتاب في صدق قولي ثم فحصها قليلاً وردّها الى مكانها فاخذت تجري كعادتها . فالتفت اليّ وقال هاتِ سيفك فنزعتهُ وسلمتهُ اليهِ . ثم قال للضابط اني قد حكمت عليهِ بالموت واعطيتهُ مهلة ساعة واحدة يودع فيها دنياهُ ويكتب وصيتهُ فمتى تمت الساعة وسقطت آخر حبةٍ من الرمل فاطلقوا عليهِ النار ليموت موت الخائن الجبان . ثم خرج وبقيت وحدي انتظر لقاء منيتي فجلست في ناحيةٍ من الغرفة اراقب سقوط الرمل الا انهُ قبل انتهاء الساعة توقف كعادتهِ ورأى الضابط ذلك فهمّ بتحريك الزجاجة فصحت بهِ قف مكانك ولا تدنُ من الساعة فانك لم تؤمر بهذا . وكان الضابط معتاداً الطاعة الجندية فوقف لا يبدي حراكاً وشعرت بانتعاشٍ في قواي فامرتهُ ان يرسل احد رجالهِ الى القائد يعلمهُ بما حصل وينظر بما ذا يصدر امرهُ . فغاب الجندي نحو نصف ساعةٍ ثم عاد وعاد القائد معهُ ولما دخل توجه توّاً الى الساعة وكانت لا تزال واقفةً فوقف هنيهةً ثم اخذها بيدهِ ينظر فيها ورايت في وجههِ ما جرّأني على الكلام فقلت هذا يا مولاي نفس ما وقع لي اولاً وعاقني عن انفاذ اوامرك . فتبسم ثم نظر اليّ وقال اني قد عفوت عنك وهذا سيفك اعيدهُ اليك فاستعملهُ في خدمة الحكومة حيّاً ثم صرف الضابط وجماعتهُ وخرج

وبعد ما انصرف وخلوت بنفسي اخذت افكّر في فعلٍ اعوض بهِ

عمّا فات واسرّ قائدي الذي كنت احبهُ واجلّهُ الى درجة العبادة فانتظرت الى ان اتت الساعة الثانية بعد نصف الليل ثم انتخبت خمسةً من خيار رجالي وانطلقت بهم تحت جنح الظلام وهم لا يعلمون الى اين يذهبون . وكانت القلعة قائمةً من احد جوانبها على شفا وادٍ عميق فلم تهتمّ الحامية ان تحصّن تلك الجهة فخطر لي ان اقصد القلعة من هناك ونزلت برجالي الى اسفل الوادي واخذنا نتسلق تلك الصخور الشاهقة ونحن حفاة الاقدام وبعد مقاساةٍ عنيفة وصلنا الى جدار القلعة فسمعنا وقع اقدام الحارس فكمنّا لهُ حتى اذا اقترب منا وهو غير عالمٍ بشيء وثب اثنان من جندي عليهِ وفي اقل من لمحة طرفٍ اوثقا يديهِ وسدّا فاهُ ثم تبعناهما واحطنا بهِ ووضعت سيفي عند قلبهِ واستفهمتهُ عن موضع الذخيرة وغير ذلك مما اردت الوقوف عليهِ وتهددتهُ بالقتل ان لم يصدقني . وبعد ان عرفت منهُ كل شيء تركتهُ موثقاً تحت حراسة احد الجنود وتقدمت مع الباقين الى الغرفة التي فيها ذخيرة القلعة واستلّ احدنا خنجرهُ فكسر بهِ برميلاً كبيراً من البارود فانتشر البارود في كل الغرفة . وشعر القوم بنا فارتفع صوت البوق وسمعنا ركض الجنود فاسرعنا من وجوههم حتى اذا تباعدنا قليلاً اخذت البندقية واطلقتها على برميل البارود الذي كسرناهُ فاشتعل واشعل ما يجاورهُ وللحال حدث انفجارٌ هائل حتى كانت الارض تميد تحت اقدامنا ثم ارتفع الصراخ والتأوُّه وغبت انا عن الوجود فلم اعلم بعد ذلك شيئاً حتى انتبهت بعد خمسة ايام فوجدت نفسي في مستشفى جيش الدوك ملبروك وبجانبي القائد تريلوني والطبيب . وعرفت من

القائد انهُ كان تلك الليلة في خيمتهِ فسمع الانفجار واسرع برجالهِ لينظر ما الخبر فوجدني ملقىً خارج سور القلعة مضرّجاً بالدمآء وكانت قد قذفتني بعض قطع الخشب المتطايرة على اثر الانفجار. فتعجب من وجودي هناك وانتشلني وفي الصباح دخل القلعة فخرَّب ما بقي منها ثم سار بجيشهِ الى القائد العام واصحبني معهُ وهو يعالجني الى ان شفيت وبعد ذلك شكرني وانعم عليّ

وبعد نهاية الحرب رجعت الى ألسنكور ابحث عن مرغريت فوجدتها قد رجعت الى انكلترا فاغتممت لذلك اشد الغم وبقيت كالحائر الى ان رجعت الى وطني وبحثت عنها كثيراً فلم اقف لها على خبر ولم يكن عندي ما اتذكرها بهِ سوى هذه الساعة الرملية التي كنت احافظ عليها محافظتي على حياتي

ولما كانت السنة الماضية سافرت في الحرب الاخيرة واحتاجت والدتي في مدة غيابي فباعت بعض ما في المنزل وفي جملتهِ الساعة فلما عدت ولم أرَها شقّ عليَّ الامر جدًّا وكان فقدها عندي مثل فقدي لمرغريت فانطلقت اتبع سير الساعة وابحث عمن اشتراها ولمن باعها الى ان افضيت الى مخزن الطُرَف وعلمت انها قد بيعت لك فقصدتك لأقصّ عليك قصتي هذه واتوسل اليك ان تنعم عليَّ بهذا الذكر الوحيد الذي ابقاهُ لي الدهر من مالكة فؤادي وما احسبك تضنّ عليّ بهِ

وكان برترام في اثنآء سماعهِ قصة الملازم واضعاً الساعة على ركبتهِ وقد ذهل عنها بما سمعهُ من ذلك التاريخ الغريب فلما فرغ سنتور من كلامهِ

وقف برترام متأثراً متهيجاً وقال اجل اني لا اضنّ عليك بهِ • ولكنهُ عند قيامهِ سقطت الساعة الى الارض فتحطمت كِسَراً ولو أن خنجراً اخترق احشآء سنتور لكان اسهل عليهِ من مرأى قطع الزجاج المتكسر والرمل المنتشر على الارض فجثا امام تلك الكسر وتنفس الصعدآء ثم تدفقت عبراتهُ .

ووقف برترام كالصنم يفكّر فيما جرى ثم انهض سنتور واجلسهُ على كرسيّهِ وقال لا بأس يا سنتور فسأعوّض عليك بما هو اثمن من الساعة فانتظرني هنا • ثم دخل الى غرفةٍ ثانية فما غاب الا قليلاً حتى عاد وعلى ذراعهِ فتاةٌ بثياب النوم فلم يكد نظر سنتور يقع عليها حتى صاح مرغريت وسقط الى الارض

وكانت مرغريت اخت برترام وكانت بعد ما حدثت تلك الحوادث في ألسنكور ظنت ان حبيبها قد قُتل فهجرت الدنيا وملذاتها وعادت الى بيت اخيها تقضي بقية حياتها في الزهد والصلاة • وطلب كثيرون الاقتران بها فامتنعت ولما تكرر ذلك منها سألها اخوها عن سبب امتناعها فاخبرتهُ بخبر سنتور وانها عزمت ان لا تقبل احداً بعدهُ • فلما سمع برترام حديث سنتور لم يشكّ انهُ هو خطيب اختهِ ولما انكسرت الساعة تذبه فذهب وايقظها من نومها فاجتمع الحبيبان بعد ذلك الفراق الطويل ثم اقترن سنتور بمرغريت وعاشا بقية ايامهما سعيدين يتمتعان بصفو الحياة على قدر ما يسمح لهما الدهر بالصفآء